قرية ظالمة للدكتور محمد كامل حسين

بقلم : فتحي الابياري

واقبلت عليه تقول :

ـ اليوم عيد مولدي

فقال لها :

ـ وهل تظنين اني انسى ذلك ؟

ـ واريد ان تحمله يوما لا انساه ابدا .

ـ لك ذلك ..

ـ واريد ان تحتفي به ، فلا يشغلك عن امر آخر ..

ـ ما كان اسعدني بذلك ... لولا ما سيجري في اورشليم اليوم .

ـ لا يعنيني من ذلك شيء ، واحب الا تلتمس الاعذار ، فانك تعلم اني لا اعفر مثقال ذرة اذا كان الامر يتعلق بحبك اياي ..

ـ وانا لا اطيق ان يمر بخاطرك اني اقصر في ما ترعيني الى عمله ، ولكن لي في دار الندوة اليوم شانا اي شان .

ـ وماذا في دار الندوة اليوم ؟

ـ انهم يطالبون بدم رجل قامت عليه قيامة الناس عامة ، جمهورا وقساوسة وعلماء ، ولا بد ان تحسم امره اليوم .

ـ ومالي ولذلك كله ، اترى ان موت رجل من عامة الناس ادعى الى عنايتك من حبك اياي . انهم يصلبون رجالا كثيرين كل يوم ، اما اليوم فهو يومي ، ولا يكون الا مرة كل عام .

ـ وقد لا يتكرر صلب رجل قتل هذا النبي ، ابد الآبدين .

ـ اني عددت عليه بالامس من الذنوب ما احفظ عليه قوم اسرائيل كافة ، وجمعت عليه التهم ما حمل جريمته واضحة لا تقبل فيها رافة ، ولا رحمة ، فحكموا عليه بالصلب ، واعجب الناس يبلاغتي ، وهنأوني على ما ابديت من حرص على الايمان ، وعناية بالوطن ، وعلم بالتوراة ، ولابد ان اتبع نجاحي بالامس نجاحا جديدا اليوم ، حتى لا تهن عزائمهم فينكصوا

الى ان قالت :

ـ وماذا علمت عنه حتى البت عليه لومك ، ابك موجدة عليه ؟

ـ انه يريد ان يجعل الجهلاء اندادا لامثالنا ، ويريد ان يجعل الفقراء واياانا سواء ، وفى ذلك قضاء على بنى اسرائيل كله . ابروق لك ان يساوى بيننا وبين ذلك الحداد الذى يعمل امام بيتك ؟

ذلك هو الموضوع الذى اختاره الدكتور محمد كامل حسين لقصته « قرية ظالمة » (!) وقد ركز اهتمامه على ذلك اليوم المشئوم الذى صلب فيه « المسيح » وكان يوم جمعه . حين اجتمع كبار علماء بنى اسرائيل فى «دار الندوة» ليعلنوا قرارهم الاخير، وكان ذلك النشاب الذى يمثل الاتهام، يتحدث مع زوجته ـ وهى اجمل فتاة فى اورشليم ـ عن براعته فى ادانة ذلك الرجل الذى كفر بالله ، وانكر الصفات التى له فى التوراة ، لانه لايقول بحبروته وانتقامه ، وانما يقول ان الله هو الحب ، ويريد ألا يخاف الناس الله . وثارت زوجته الجميلة ، وقالت له « اتقتلون رجلا ان يقول ان الله هو الحب ، تلك كلمة لا يقولها مجرم . الله هو الحب !..

وان المرأة تحب الرجل الذى يفهم الحب اكثر من حبها الرجل الذى يفهم النساء .

فاكثر هؤلاء مايقول ، ان حب المرأة هو الخطوة الاولى الى حب الله .

وهذا الموضوع شائك اذ يتصل بالديانات وخاصة الديانة المسيحية ، ويحتاج الى براعة فى التحليل المنطقى العميق . ومع ذلك اتخذ الدكتور محمد كامل حسين هذه المأساة .. مأساة الضمير الانسانى التى وقعت فى ذلك اليوم الذى يتذكره الناس كل عام ، والحقيقة ان هذا اليوم .. يوم الجمعة الذى أجمع بنو اسرائيل امرهم ان يطلبوا الى الرومان صلب المسيح . ليقضوا على دعوته ، كان امتحانا رهيبا وقاسيا للضمير الانسانى .

فما هو الأسلوب الذى اتخذه الدكتور محمد كامل حسين فى بناء قصته الطويلة هذه التى تقع فى ٢٣٤ صفحة . وما المجال القصصى الذى دارت فيه شتى انواع الاحداث . وكيف صور الصراع العنيف ، بين العقل والضمير ، وبين الحب والكراهية، وبين العدل والظلم ، وبين الايمان والكفر، وبين الشجاعة والجبن ، وبين الواجب والخيانة ، وبين المنطق والمنطق .

وكانت « اورشليم » هى خشبة المسرح الذى وقعت عظام الأحداث فوقه . فقد صور جميع اركان الصراع فى ثمانية عشر فصلا ، بدأها بذلك الحدث الذى دار بين ممثل الاتهام وزوجته الجميلة الفاتنة التى لا شأن لها فى الجدل السياسى المنطقى ، ولكنها الكلمات صافية ، صادقة عن الحب والله ، جعلت زوجها ممثل الاتهام الخطير ، يذهب الى دار الندوة مبلبل الفكر ، مزعزع الايمان فيما قاله بالأمس من ان ذلك الرجل قد كفر بالله ، ولكن صوتا خفيا من أعماقه .. يقول : كلا انه ليس بكافر .

حتى مفتى اورشليم نفسها ، يراجع نفسه فى حوار بينه وبين ابنه ، اذ يقول له ابنه .

ـ لعلك تريد اليوم ان تعدل عن رايك يا ابى

ـ وما الذى يمنعنى من ذلك ، انى لا اريد ان تبقى فتواى على مر الزمن سببا فى صلب رجل لا اعلم عنه شرا .

وعندئذ يحاول المؤلف جاهدا ان يكشف الحوادث ، ليخدم فكرته عن الصراع العنيف بين الضمير الانسانى ، والعقل الانسانى القاصر مهما يبلغ من قوة . اذ يصور لنا فى فصل كامل قصة « لازار » الرجل الذى احياه المسيح ، بعد ان مات الرجل . فعاد الى الحياة شاحب اللون ، غائر العينين ، قليل الكلام ، وكان الشاطر اليه لا يرى فى وجهه اثرا للعواطف الانسانية الطبيعية، فهو لا يفرح ولا يحزن ولا يضحك ولا يبكى .

وشخصية لازار هذه انما ترمز للضمير الانسانى بعد ارتكاب الخطيئة والتوبة ـ ان الله يتوب على الناس بعد المعصية فيرد اليهم ضميرهم بعد موته ، لان ارتكاب المعصية قتل للضمير ، ولكن الضمير يبعث على هيئة هذا الرجل ، شيئا بين الحى والميت، ولايمكن ان يكون ضمير الرجل بعد التوبة طاهرا نقيا ، كضمير البرىء الذى لم يرتكب اثما ..

فالكاتب كان عميقا فى تقصى كل صغيرة وكبيرة فى ذلك الحدث القصصى الذى اختطه لنفسه ، فقد التقط ببراعة كل الاحداث والشخصيات الدينية والتاريخية التى ورد ذكرها فى التوراة والانجيل ، والقرآن الكريم .

ومزجها فى نسيج بديع ، مستعينا فى عملية نسجه لهذا العمل الكبير .

فقد التقط شخصية « قيافا » ذلك الرجل الذى القيت مقاليد بنى اسرائيل اليه ، لعلمه ، وعدله ، وصوره فى فصل كامل هو الآخر ، ليحلل تحليلا دقيقا ازمة الضمير الانسانى فى تلك اللحظات الخالدة . فقد جعل « قيافا » ينفرد بنفسه ، يغوص فى اعماق اعماقها ، ليستجلى الحقيقة، وليبحث عن عجلات النجاة ، لتنقذه من دوامة الباطل .

لقد اعجب قيافا بالنبى الجديد لانه استطاع ان يجد حلا . هذا الحل .. هو ان طبيعة الانسان جزء لا يتجزأ ، وكل فضيلة ـ مهما يكن امرها خفيا ـ تعد حجرا فى بناء الشخصية.ولايضيع اثرها ، وان خفى على الناس فضلها . لقد ارشدهم النبى الجديد الى مملكة السماء ، التى يدخل فيها الفقراء والبسطاء والخاطئين والجهلاء .

وظل الكاتب يحلل موقف اهل الفكر والعلم من الدين الجديد ، داخل نفسية « قيافا » ، وقد بلغ فى ذلك التحليل القمة (ص ٥٦) . اذ يقول قيافا لنفسه عن النبى الجديد « انه يريد أن يضع الضمير فوق التدين ، ولكن اهل التدين سيقفون عليه قبل ان يفقده اهل الضمير . ويريد ان يرفع صغار الناس الى ان يساوى بينهم وبين من هم اعلى منهم ، ولكن هؤلاء سيقفون عليه قبل ان يفقده من يريد أن يرفعهم . ويريد ان يرفع الانسانية فوق الوطنية والقومية ، ولكن الوطنية ستقضى عليه قبل ان تفقده الانسانية . انه لم يؤذ اى فرد من بنى اسرائيل ، ولن يؤذيه اى فرد منهم ، ولكنه يؤذى اسرائيل

مجتمعة ، وجماعتهم هي التي ستنتقم منه ، وان كره كل واحد منهم أن ينتقم منه لنفسه .

وفي دار الندوة ، حيث يتقرر بنو اسرائيل قرار حكمائهم ، وفقهائهم، كان هؤلاء الفقهاء بما فيهم «قيافاء» ومعتل الاتهام ، وعدد كبير من الحكماء، مرغمين الايمان في الحكم على ذلك الرجل بالصلب . كان ضميرهم قد بدأ يستيقظ ، ولكن كيف يرجعون عن قرار الأمس ، وما اليوم الا التصديق على ذلك القرار .

وأحست الجماهير بان حكامهم قد ترددوا ، فاقتحموا الدار وهم يصيحون اقتلوهم ، جرفوهم جميعا ، لا بد من قتله وقتلهم معه .

وسارت الجماهير الى دار الحاكم الروماني تطالب بدم الرجل واتباعه . لم يكن فيهم من يعلم عنه شرا ، ولم يكن فيهم من يريد قتله ، عن عقيدة واقتناع شخصي-هكذا تمت أكبر جرائم التاريخ . جريمة الحكم على المسيح بالصلب لكفره بالله ، دون أن يعلم أحد من أهل أورشليم من الذي يراد قتله ، ولا عن من يقع وزر هذه الجريمة الشنعاء .

ذلك هو اليوم المشئوم ...

وقد صوره محمد كامل حسين .. عند بني اسرائيل أولا . ثم انتهج نهجا آخر في رواية أحداث هذا اليوم أيضا، ولكن عند الحواريين . وذلك في خمسة فصول . ثم عند الرومان وذلك في ستة فصول . فقد جعل يوم الجمعة هو محور ارتكاز لقصته ، ثم قسمها ثلاثة اقسام ، القسم الأول صور فيه حال بني اسرائيل في ذلك اليوم الخالد في سبعة فصول . والقسم الثاني كان عند الحواريين ، بدأه بقصة « المجدلية » التي افتتنت بجمالها ، وتسبب جمالها في مأساة دامية ، مات فيها أخوها . وأصبحت « المجدلية » شؤما . فتركت قريتها الى أورشليم ، بعد أن تحاشاها الناس حتى أمها . وفي أورشليم ظلت تبيع جسدها لتكفر عن خطيئتها الأولى. وفي وكر الرذيلة تعرفت على جندي شاب من الرومان . وأحبته حبا عنيفا. ولكنها ما ان سمعت بقصة النبي الجديد حتى وجدت في دعوته خلاصها . واستجاب حبيبها الجندي الروماني ، للدعوة الجديدة بعد أن آمن بها ، لأنها تدعو الى أن الانسان بدون الله حرأة لا معنى لعمله ولا قيمة للدوافع التي تصدر عنها اعماله ، فان ما يميز الانسان عن الحيوان هو الضمير ، والضمير من الله لا يكون الى آدم الا حيوانا عاقلا ذكيا ، أما ان يكون بدون الله انسانا فذلك محال .

وفي الجزء الثالث الذي صور فيه المؤلف يوم الجمعة عند الرومان . حمل هذا الجندي يقع في ازمة ، ليصور الصراع بين النظام والضمير . فقد اشترك ذلك الجندي في حملة عسكرية على قرية آمنة . وكانت قوية بالايمان لهلها . فحاصرها الجيش الروماني ، وحدث أن التقى هذا الجندي في معركة صغيرة ، قتل فيها زميلاه ، ولم يبق الا هو وجندي من الأعداء ، واستطاع أن يصيبه . ولكنه حتى أن يتركه فيموت ، فأعاده الى القرية . وكان

موقعا عميقا ، فقد عرف الضابط بحرء يستطيع بها جيشه أن يبتعد منها ويتحقق النصر . وانقسم أهل القرية قسمين ، قسم رأى انه جندى سبيل لانه عرف الثغرة وكان في استطاعته أن يترك الجندى الجريح يموت. ولكنه آثر أن ينقذ الجريح ويعيده الى القرية. وقسم آخر رأى أن يسجن حتى لايفشى السر . وأخيرا قالوا له « اننا سنترك لك وشأنك ، نذهب الى بحورك ، ونحن نعلم أنك تستطيع أن تعين جيشك على فتح المدينة ، وأن عوامل الطمع أو الخوف قد تدفعك الى ذلك ، على أنك ان تفعل تكن حربت احسانا اليك بسوء ونحن لا نريد أن نجزى احسانك الينا بسوء .

وقد صور المؤلف هذه الحادثة ، لانه كان يمهد للأحداث القادمة . فعندما فشلت الحملة ، وتم الصلح بين الرومان وأهل القرية . شاعت قصة الجندى السبيل ، ولكن الرومان وجدوا فيها خيانة عظمى . واعد له القائد محاكمة وكان ذلك يوم الجمعة . صباحا ، واتهموه بالخيانة العظمى. ووقف الجندى يدافع عن نفسه قائلا .

« ايها الاخوان .. انى لم أحكم ولم أحن أحدا ، ولكنى حنت الظلم والعدوان واستغلال الأقوياء للضعفاء امثالنا ليزيدوا قوتهم قوة . وطغيانهم طغيانا. انى لم أود احدا منكم ، ولكنى حرمتكم ان تقتلوا عددا أكبر من أهل المدينة الأبرياء الذين سيستعبدهم لكم اعداء وانتم لا تعلمون عنهم شيئا . وحرمتهم أن يقتلوا منكم عددا أكبر .

وتركه القائد يكمل دفاعه فقال الجندى أخيرا .

« سأذكر لكم أمورا ثلاثة يتحقق بها السلم .. الا تعلنوا حربا الا أن يؤخذ في أمرها الجنود فهم الذين سيقتلون. وان يقسم الجندى عند التحاقه بالجيش الا يتعدى حدود بلاده لأى سبب كان وأن تحرموا على القادة تحريما باتا ان يتعرضوا لحياة الجندى الذى لا يرى أن يحارب خارج بلاده . وان شئتم المزيد فلتعمل ما يعمله بعض أهل البلاد البعيدة الذين يصدون من يبدهم اعلان الحرب تحت قبة خاصة ، يتشاورون، فاذا قرروا اعلان الحرب خدمة للأمة هدموا عليهم القبة . وساروا الى الحرب عالمين انها خدمة للأمة أن يشترك فيها أولو الأمر والجنود سواء بسواء . ولم تعلن في تلك البلاد حرب منذ قرر أهلها هذا القرار » .

وحكم على الجندى بالاعدام . ومزقت جسده الحياد الأربعة التى أعدها له القائد . وعندما شاهد المنظر أصيب بلوثة في عقله .

وفي ظهر نفس اليوم .. يوم الجمعة .. أظلمت الدنيا .. ثلاث ساعات ، عندما صلب المسيح .

وفي ذلك اليوم أراد الناس أن يقتلوا ضميرهم ، وفي هذا الذى أرادوه تتمثل نكبة الانسانية الكبرى . فلم يحدث في العالم شرا الا كان أصله ما يريد الناس من قتل ضميرهم ، واطفاء نوره.

وليست أحداث ذلك اليوم من أجل يوم في حياة كل فرد . فالناس أبدا

معاصرون لذلك اليوم المشهود ، وهم أبدا معرضون لما وقع فيه اهل اورشليم حينذاك من اثم وضلال . ويتسلطون كذلك حتى يجمعوا أمرهم الا يتخطوا حدود الصبر .

وقصة الدكتور محمد كامل حسين ، قصة أحداث ، وهي تكاد تكون العنصر

نفسها بقدر ما تخدم الحدث الذي اورده المؤلف ليصور صراعا ، بين الايمان والكفر مثلا ، او الضمير والعقل . لذلك لا يمكننا أن نحس بانعكاس تلك الشخصيات ، او نحس تأثيرها على نفوسنا بقدر ما تتأثر بما اورده المؤلف من تحليل دقيق ، وحوار للسعي عميق عن الدين ، والايمان ، والضمير . وقد استخدم الكاتب في التعبير .. طريقة السرد المباشر ، ليتمكن من تصوير الاحداث والخلجات الانسانية ، وليكون قادرا على تحليل الشخصيات تحليلا في

منتهى العمق ، وتحليل الفكرة ، تحليلا منطقيا جذريا . ولكنه في بعض الأحيان كشف القناع عن نفسه ، وظهر هو بانفاسه في ص ٧٤ ، ٧٥ ، عندما علق علق على حادث الصلب . وخرج من سياق السرد المباشر ، الى التعليق المكشوف . « وهكذا حكم على المسيح بالصلب من أجل كفره بالله ، فهل يبقى بعد ذلك لأحد ثقة في حكمة الانسان »

وقد نجح المؤلف في حبكته الفنية ، وتسلسل الأحداث تسلسلا بديعا ، في أسلوب رصين ، كما برع الكاتب في استخدام الألفاظ ، والتراكيب العربية براعة فائقة . وحوار سلس قصير ، مشبع بالفلسفة العميقة .

وتعد هذه القصة بحق ، من الدرر النادرة في تاريخ قصتنا المعاصرة . وقد توجتها الدولة بجائزتها للقصة .